

الحوار الحضاري بين جدليتي المقاومة والاستلاب
مفترق العصور لعبير شهرزاد أنموذجا
**The Civilizational Dialogue between Resistance and
Abduction**

« The crossroads of the times » of AbirShehrazad as a sample

د. تحري ليلي

معهد الآداب واللغات، جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

Tahrileila82@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/02/10	تاريخ القبول: 2018/12/03	تاريخ الارسال: 2018/08/06
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تهدف هذه الورقة النقدية إلى إثارة موضوع الحوار الحضاري في رواية "مفترق العصور" لعبير شهرزاد، الذي أدارته الروائية وفق ثنائية المقاومة والاستلاب: مقاومة قائمة على أساس الوفاء للوطن والتشبث بالأصول والهويات الثقافية التي أضحت مجال الصراع والتطاحن في زمن العولمة، واستلاب للهوية ونسيان الأحقاد التاريخية بين الذات والآخر انطلاقا من مخطط عولمي يقضي بتفتيت الهوية ومحاولة الإلحاق القسري بدول المتروبول الغربي، فكان العمل على قراءة المشروع قراءة ثقافية كاشفة قائمة على فضح وتعرية المشاريع الغربية القائمة على ثقافة استتصالية تمجد الحضارة الغربية وتقضي ما عداها، في الوقت الذي تعمل فيه القراءة على مراجعة انتقادية للذات العربية وتفتحها على نوافذ الآخر، حتى وإن كان الآخر هو الجحيم كما عند سارتر.

الكلمات المفتاحية: الحوار الحضاري، الأنا والآخر، المقاومة الثقافية، الاستلاب الثقافي.

This paper aims to raise the subject of civilizational dialogue in the novel « Crossroads of Ages » by the novelist « AbirShehrazad », which was directed by the novelist according to the dual resistance and takeover : resistance based on the fulfillment of the homeland and clinging to the cultural origins and identities that became the field of conflict and strife in the era of globalization .And between the takeover of identity and forgetting the historical hatred between the self and the other based on the global scheme of fragmentation of identity and the attempt to forcibly join the West Metropole. Thus, the work was based on reading the project a

cultural discovery reading based on exposing Western projects that are based on exclusivity which glorifies the western civilization but excludes any others.

At a time when reading is a critical review of the Arab self and open it to the windows of the other even if the other is hell as mentioned by Sartre.

Key words : Civilizational Dialogue , self and other, Cultural resistance, culturalAbduction.



شهد العالم موجة من النظريات الفكرية والسياسية التي عبرت عن تركيبته المعقدة وإيديولوجياته المتصارعة فكان من ضمن النظريات التي تأججت حدتها وألقت بظلالها على الشعوب نظرية صدام الحضارات الإقصائية وقد شكلت أطروحة هنتغتون واحدة من تلك النظريات التي عبرت عن ضروب المقاطعة والانتصار إلى فكرة التمركز الغربي التي صيغت من طرف فلاسفة ومفكرين غربيين من أمثال هيغل¹ الذي قرأ التاريخ الإنساني من منطلق التفوق، فإذا كان التاريخ يبدأ بالشرق الذي مثل الطفولة فانه مقابل ذلك ينتهي بالغرب الذي يمثل الشيخوخة الناضجة وهو اعتراف منه أن لا تاريخ بعدما وصلت الحضارة الغربية إلى ذروة التطور. لقد رسمت نظرية هنتغتون معالم عالم غابت عنه سبل الحوار والشراكة الإنسانية المؤسس على تلك التباينات الثقافية وعليه فان الصراع لن يكون بين الطبقات الفقيرة بقدر ما سيكون بين هويات ثقافية فهو ينطلق من أن حضارات كثيرة تحكمها لغة الصدام² إن أكثر الصراعات انتشارا وأهمية وخطورة لن تكون بين طبقات اجتماعية وفقيرة او جماعات أخرى محددة على أسس اقتصادية ولكن بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة² إن لب التفكير عند هنتغتون قائم على أن الصراع أصبح بين الحضارات المختلفة وهو، يعتبر ذلك الاختلاف الثقافي ليس عنصر ثراء بقدر ما هو عنصر مواجهة سياسية كونية بين شعوب العالم .

ورغم محاولة الانتصار لفكرة التمركز الغربي عنده إلا أنه متخوف من مصير الغرب في ظل التهديد الممارس عليه من طرف حضارات إسلامية فهو يعترف من أن التأثير الذي مارسه الغرب لقرون طوال آيل للزوال والتلاشي وأن هناك تأثير آخر مصدره الحضارة الإسلامية والصينية

هو الذي سيظهر "القوة تنتقل من الغرب الذي كانت له السيطرة طويلا إلى الحضارات غير الغربية"³

وكما عبرت الأطروحة عن لغة الصدام القائمة فقد كانت بدورها نظرية فوكوياما من النظريات التي أرست دعائم لغة التطاحن والتمركز الغربي فكانت نهاية التاريخ فالتاريخ ينتهي في النقطة التي وصلت فيها الحضارة الغربية إلى هرم التطور وتعميم قيم الديمقراطية والبرالية الحديثة فالديمقراطية الغربية قد انتصرت ولن يكون هناك حديث عن تخوف بشأن تصاعد الحضارات التي تحدث عنها هنتغتون وإنما سيكون اختراق العالم الإسلامي بفضل الأفكار التحررية التي قدمها الغرب وأسس لها "أنا لا أشاطر وجهة نظر صموئيل هنتغتون هاته لأنها تبدو لي متطرفة فهل يعقل أن نتصور كما فعل هو أن جمهورية إسلامية مثل إيران يمكن أن تصبح دولة حديثة تقف أمامنا وقفة الند للند أشك في ذلك كثيرا لأنني مقتنع بأن التحديث لا يمكن فصله عن قيم الحداثة التي أبدعتها الثقافة الغربية"⁴

هكذا ينطلق فوكوياما كغيره من منطلق الثقة المفرطة بالغرب وإنجازاته ويحتفي كسابقه بإفراز حضاري غربي قوامه فكرة التمركز الغربي .

وكما تأججت حدة النظريات الغربية الداعية للصدام بين القوى كانت بدورها نظريات فكرية داعية لتكريس لغة التسامح والحوار الإنساني الذي يعترف بفضل الحضارات على بعضها لا ذلك الحوار الذي يعترف بأفضلية حضارة على أخرى، فما تحتاجه الشعوب هو صوغ آليات تسمح باحترام الأنا للآخر وإنعاش حضارة كونية قائمة على أبعاد إنسانية قوامها الشراكة الثقافية. وقد اكتسب العالم صيغة الحوار الثقافي مع غوته الذي أدرك أن وحدة التفكير الإنساني ليس كيف نفكر وإنما كيف نتحاور ونتقبل بعضنا بعضا في إطار ثقافي كاد يقصي الآخر، فالحاجة إلى الحوار أضحت ملحة في تاريخ الإنسانية لكنه ليس الحوار المبني على أساس النزعة الامبريالية وإبادة الخصوصيات الثقافية بل هو الحوار المبني على الحرية واحترام الخصوصية الثقافية . وقد تناولت عبير شهرزاد موضوع الحوار الثقافي الحضاري وأدارته عبر ثنائية المقاومة والاستلاب، مقاومة تأسست على نبذ الآخر فكان تعزيز الانتماء عبر استحضر الوطن في المنفى وفي الوطن ذاته هو الوطن الذي تحول إلى آلية دفاعية لمواجهة الآخر وتجريمه فعبير شخصية

سامية المناضلة يمثّل الوطن بكبريائه وشموخه على نحو يفلح في نقل الانطباع بذلك التباعد بين الذات والآخر الغريب:

"وقفنا بين صفتين يواجه احدهما الآخر، الوطن والوطن الآخر، القادم والقاعد، العصر والعصر الآخر.. سموت براسي المتصلبة وشمخت بأنفي البربري واشهرت ابتسامه قوة وعزة طأطأت لها رأسه وطرق يديه في الهواء كما لو كانت رصاصة يطلقها في الفضاء "5.

مقطع روائي كاشف عن تلك المواجهة الثقافية بين كيانين مختلفين يفتقدان إلى سنن ثقافي مشترك يمارسان عنف الانغلاق الذي تنتهي إليه البطلة سامية بمخالفة حضارتنا لحضارتهم . بتلك الكيفية تجلي الصورة الروائية وتشخص نبذ الأنا للآخر واستبعاده ومواجهته كما تمثل وعي الذات بعزلتها المتناهية في فضاء الآخر فما يتبين هو من قبيل التصدي والمقاومة الذي يجعل الذات تتلمس الخلاص في الانتماء للأصول البربرية الدالة على الشموخ والكبرياء.

وتتواتر ثيمة التصدي والمقاومة مع البطلة نفسها بين الذوات المتغايرة في تعميق فجوة التباعد وتأكيد الانتماء عبر سيل من الصور الروائية للبطلة سامية التي ردت على الآخر الذي أراد اصطحابها بضم يدها إلى يده: 6

هل تسمحين أن أخذ بذراعك فأقدمك لضيوفي

يمكنني أن أسير بمفردي

هل تحملين عقد الجزائر في حقيبة يدك

أحمل مصحفها وهاتفنا يصلني بأخبار الوطن

هو الوطن الذي يحضر بتضاعيفه وأطيافه ورموزه تأكيداً على عمق الانتماء عبر التأصيل لهوية قائمة على رموز ثقافية دينية أثرت من خلالها أحداث القطيعة مع الآخر المتماهي بدوره مع الآخر الغريب فكان المصحف رمزا من الرموز مررت من خلاله المبطلة عمق الانتماء إلى وطن عربي جزائري إسلامي بغية الانفلات من سلطة الضوابط النسقية التي تملّي التبعية والانقياد المصحف بطاقة هوية لسامية تأكيداً على الوجود في ظل السؤال الاستفزازي الذي طرحه والد مختار.

و يتأكد الموضوع ذاته في محاولة لاختراق الغيرية عبر ثيمة المقاومة التي نجحت في تمثيل سمات عسر التواصل لصورة ذات يبدو من الاستحالة إذابتها في نسيج الآخر:

"أريد أن أكتشف مدى غياب وحضور الأوطان فينا ومعنا مهما ابتعدنا .. أعلم إذن
أني من بلاد بعيدة المنال .. أسكن منها قلعة للوهم .. تغطي فيها أحجار الماضي وأثواب الحرية
.. ولكم أشعر بالبرد وأنا بعيدة عنها 7.

هي الذات المتمسكة بالوطن والمتغنية بالوطنية تبحث عن التفرد في ظل التاريخ الثوري
تتبع في البحث عن جذور ثقافية متجذرة في الوطن وفي مثل هذا الالتصاق الحميم والعودة إلى
أحضانها والسفر من أجله لمناقشة قانون فيفري إصرار على الهوية ونبتذ الغيرية وإحالة إلى الدور
الطلائعي الذي ينهض به المثقف "فمن المهام المنوطة بالمثقف أو المفكر أن يحاول تحطيم قوالب
الأنماط الثابتة والتعميمات الاختزالية التي تفرض قيودا شديدة على الفكر الإنساني وعلى التواصل
بين البشر " 8.

إن جوهر الرسالة التي ينهض بها المثقف الفعال هي الالتزام بقضايا الشعوب والوقوف
في وجه السلطة وتحدي الاستعمار بأشكاله الحديثة بتلك الصورة وجب أن يصاغ مسار المثقف .
لقد وقفت البطلة جاهدة على فضح القانون، مؤكدة على أن "قانون 23 فيفري بمواده
الخمسة الأولى إهانة للقضية الجزائرية وتديس للحقيقة وتزوير للتاريخ وتشويه لحقوق الإنسان، انه
باختصار إهانة لفرنسا قبل أن يكون إذلالا لشرف الجزائر "9 ، كما ساهمت في تجريم فرنسا من
خلال كشف عمليات سوء التمثيل التي ألحقت بالجزائر والتي أقرتها المؤسسة الغربية القائمة على
إنتاج الصور النمطية .

لا يمكن لسامية إلا أن تكرر الرؤية المقاومية كيف لا وهي الثائرة المجاهدة التي عملت
مع أخواتها المجاهدات على تصفية الحسابات مع الآخر فكانت نموذج الشخصية التي أحالت على
التمسك بالقيم الثابتة والمتأصلة وكرست مقولة تخليد التناوب واستحالة الجمع بين الفضائل فرغم
المصاحلة إلا أن النسيان لا يمكن "تعرفون قطعا سنوات الاحتلال وتذكرون بلا شك سنوات
المقاومة وقصة التحرير والنضال ولا أظنكم قد نسيتم قضية التعذيب وكلها تفاصيل تهمز البدن
وتدمي القلب وتنحت الذاكرة بصور لا تمحى وجراح لا تشفى وجرائم لا تنسى لكننا برغم كل
شئ ساهمنا دون أن ننسى وطوبنا الصفحة دون أن نمزقها ... "10.

فعبير المقطع تسترسل البطلة سيلا من الصور الروائية التي تحيل إلى سياقات ثقافية
عمقت فجوة التباعد وأحالت إلى الأحقاد التاريخية عبر العمليات اللا إنسانية التي قام بها الآخر

عبر تمفصلات روائية تتمادى في تركية استحالة اللقاء بين محيطين ثقافيين، فكل شئ في هذا التصوير مستوحى من الذاكرة من عمق التاريخ ومن ذاكرة العنف والتألم في سياق مشحون بعلاقة معقدة بين الذات ونقيضها ليدل على عجز التفاعل الما بعدي وإخفاقه في تحقيق المصالحة . إن هذه الأنماط التخيلية في سبيل إرساء نسق المقاومة عبر الصدام لم يكن بمنأى عن ذلك التصوير الصادم المعبر عن عنف الآخر وعدم نسيان التاريخ باعتباره الحقيقة الوحيدة التي تمارس حضورها وتطبع عنفها في مصير الجزائريين والعرب وهو ما جاء على لسان سامية :

"...هل علينا أن نمر فوق جسر استعماري يقتل شعبنا وآباءنا وأجدادنا لنشرب ونمر من ضفة أخرى .. لو أنهم تركونا وحرقتنا لسبقناهم لكنهم لا يقبلون بذلك أبدا بوش لن يقبل أبدا بتكنولوجيا خارج خارطته، شيراك لن يقبل ولن يقبل بلير وكلهم في الأخير شارون "11.

هو المقطع الذي عمق القطيعة وأحال إلى لا جدوى الحوار الإنساني وفقدان الأمل في إيجاد صيغ الصلح لأن الفضاءات محكومة بأحقاد تاريخية عمقت حدة الصراع وجعلت بشاعة الآخر سببا في تعميق الرعب والخوف من الحوار ذاته .

وبقدر ما كانت سامية التي اقتزنت بمواجهة الآخر، كانت بدورها ليلي عمة مختار محصلة لعسر التواصل مع تلك الفضاءات الثقافية والجغرافية حيث اتخذت من الناقدة بباريس فضاء تطل به على روح الوطن لتؤكد من خلال ذلك عدم استجابتها لمبادرات الحوار الحضاري:

"هذه نافذتي على الوطن اتخذتها منذ سنوات الغربة والمنفى الإجمالي الاختياري .. كانت تطل بي على الوطن حين يهجوني الوطن ..أبايع منها منازل أجدادي وبساطة النساء في الأسواق وبراءة الأطفال في الزنق كنت أفتحها كل يوم على خير قدم وخبير جديد .. كانت تحاكيني وتسليني وتطمئني"12.

لا غرابة أن نستشعر في هذا التمثيل الروائي تركيزا على الهوية ومقاومة للمنافي الاختيارية الإجمالية عبر دوائر توثق الأفق التخيلي للذات التي تعيش على إيقاع الذكرى والحنين . وإذا كانت سامية وغيرها نماذج للشخص المقاومة للآخر والمتصادمة معه في الكثير من المواضع إلا أن الروائية استطاعت عبر شخصيتها أن تدير الأحداث بعيدا عن طابع الصدام فقدمت بطلتها من زاوية أخرى ذات رؤيا من التأملات الحوارية المسائلة لخبايا المرحلة الآنية التي لا مجال فيها إلا للغة الحوار الطبيعة :

"أعرف أنني عاجزة عن قراءة التاريخ من وجهة نظركم وبيني وبينكم حواجز لا أجرؤ على كسرهما بحكم حجلي العربي وحيائي الإسلامي ولهذا أنشدكم بالله الذي تؤمنون به وأؤمن أن غير من تقاليد حفلاتكم فنؤجل الموسيقى والموائد لتتحدث بصراحة عن مشاعرنا أنتم ونحن ذلك التاريخ المشترك الذي سيظل مرتبطا شئنا أم أبينا وإذا كنا قادرين على إسقاط التاريخ أو محوه فإننا نعجز عن تغيير الجغرافيا 13.

وكما كانت ساميه كانت نيروز بدورها عنوانا للمصالحة الثقافية والحضارية التي لا مكان فيها إلا للحوار المبني على التسامح والمعبر عن المستقبل الذي ترنو إليه الإنسانية وهي التي قدمت نفسها ذات تركيبة من الجنسيات المختلفة:

"أنا مسلمة جزائرية من أصل تركي ..والدتي فرنسية وأقيم حاليا بفرنسا" 14.

فجميل من خلال المقطع أن تتحد الأوطان فينا خروجا من تلك الأنماط الثابتة التي أقرتها المؤسسات السلطوية المرتبطة بخلقيات تاريخية وسياسات إيديولوجية فعلى حد تعبير دانيال بارنويوم "انه اذا أردنا إيجاد حلول للصراعات يوما ما فسيكون ذلك من خلال الاحتكاك والتواصل بين الأطراف المتنازعة" 15.

وإذا كانت تيمة المقاومة عبر فضاء استحضر الوطن والتمسك بالخصوصيات فقد كان الاستلاب أيضا عنوانا للانزياحات الهويةتية القائمة على الحوار والمصالحة مع الآخر. فمثلا كانت قضايا النبذ والتباعد والصدام انشغالا فكريا وثقافيا كانت بدورها قضايا الاغتراب والحوار عنوانا للتعاشيش في تلك الفضاءات البينية كما يسميها "هومي ك بابا".

لقد أضحي الآخر فضاء للعيش الحضاري عملا بضرورة التعاطي مع الواقع الموضوعي الذي لا مكان فيه إلا لمصالحة كونية قائمة على نسيان الأحقاد ولكن أنى للمصالحة أن تتحقق في ظل هيمنة غربية تقصي ثقافة وحضارة الآخر وتنعتهها بالوضاعة والدونية ؟ وهو ما جاء على لسان سامية في وصف والد مختار :

"لا أستغرب لغته في التحدث عن البلاد ..لقد حفظوا أبا عن جد تلك الصبغة الجاحدة في الإشارة للوطن ..لم أستغرب أن يذكرني بمشاشة بعض منتجاتنا فأنت تشتري حذاء لتنتعله ليوم واحد وأحيانا تضطر لتصليحه قبل انتعاله..." 16.

لقد قدمت الرواية نماذج من الشخصيات التي استوعبت حضارة الغرب وتطبعت بطباعها فقد باعوا هويتهم وأشروا تأشيرة النهايات مع الوطن بعدما طردوا منه لأسباب تتعلق بسياسات تاريخية الخيانة عاشوا في الفضاءات الأخرى بعدما أعلنوا دخول عوالم اللا تسامح مع الوطن فكان الوطن عندهم فضاء للحقد الذي يتفاقم يوما بعد يوم في سياق ثقافي متوتر ومضطرب وهو ما جاء على لسان مختار وهو يحدث سامية ويوجه اتهامه لوطن المليون ونصف المليون شهيد "من بلاد تحمل رقما مزيفا وكل شئ فيها من تزيف إلى تزيف، من أرض انتزعت حرية لم تستلمها، من وطن يقتل أنبياءه، وشعب يزداد نفاقا في المواسم الانتخابية، من تلك الأرض الموعودة أنت إذن" 17.

و يتعاطم التصوير الروائي المعمق لرسم النهايات في المقطع الذي تصور فيه سامية نهاية والد كمال "كان ليؤمني منظر تابوت ديغول الجزائري أي علم سيغطيه وأية أوسمة ستعتليه ؟ بل أي شرف سيدانيه؟ هل سيعوضه العلم الفرنسي عن الأبيض والأخضر والأحمر؟ هل سيغنيه عن النجمة والهلال ؟

هل سنرى وسام الخيانة أخيرا مرصعا بالذهب ونحن نقرأ لوحة لتمجد الجبن؟" 18. وغير بعيد عن التصوير الروائي لوالد كمال كانت صورة أخرى من الصور المعمقة لذلك التباعد عن الوطن والتماهي مع الآخر مع كمال الذي ابتلغته فرنسا وحضارتها وثقافتها وهو ما جاء على لسان سامية:

"أعرف أكثر أن مشاكل الوطن لم تعد تعنيك منذ تعودت الحياة في شقة تطل على السين .. النهر الذي كان سيبتلعك ذات شتاء .. لم تعد تغريك جريدة أخرى ليست على مستوى طبعة لوموند .. لقد تعودت الحياة المرفهة بعد أن صار نفيك سياحة" 19.

هو الواقع الأليف الذي عاينته بعض الشخصيات، واقع أشبه ما تكون فيه فرنسا مكانا يمنح أبناءه غير الشرعيين أحاسيس الانتماء لتتحول المنايا إلى المنايا الأليفة التي تحدث عنها ادوارد سعيد وغيره من المفكرين من أمثال أدورنو، كوندرا، لوكاتش .

انه التأسيس لسرديات الاندماج التي لا مكان فيها الا للحوار الثقافي بين الأنا والآخر بعيدا عن التعصب وما يتبع ذلك من أنساق ثقافية تتصل بالوجود في المكان الحاضر ومفارقة التمرکز على الذات الذي تتعدد إشاراته في المتن الروائي .

وتبقى الحاجة إلى تلك الفضاءات الرحبة من الحوار والمصالحة تأسيسا لذاكرة ثقافية إنسانية ومواطنة كونية تتحاور فيها الثقافات والحضارات في إطار بعض من الهامش الذي يحفظ حرية التعبير وممارسة الخصوصيات.

هوامش:

- 1 تيزري هنتش: الشرق الخيالي ورؤية الآخر، صورة الآخر في المخيال الغربي، الرؤية السياسية الغربية للشرق الأوسط، ترجمة مي عبد الكريم محمود، المدى للنشر، ط1، 2006، ص278
- 2 صمويل هنتغون: صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشايب، ط2، 1999، ص47
- 3 المرجع نفسه: ص64
- 4 محمد العربي بن عزوز: زمن هنتغون، صراع الحضارات ونهاية التاريخ، دار النهضة العربية، ط1، 2009، ص62
- 5 عبير شهرزاد: مفترق العصور، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، 2008، ص165
- 6 المصدر نفسه: ص26
- 7 المصدر نفسه: ص26
- 8 ادوارد سعيد: المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، ص19
- 9 عبير شهرزاد: مفترق العصور، ص170
- 10 المصدر نفسه: ص169
- 11 المصدر نفسه: ص191
- 12 المصدر نفسه: ص160
- 13 المصدر نفسه: ص168
- 14 المصدر نفسه: ص313
- 15 ادوارد سعيد ودانيال بارنويوم: نظائر ومفارقات، استكشافات في الموسيقى والمجتمع، ترجمة نائلة قلقلبي حجازي، دار الآداب بيروت، ط1، 2005، ص33
- 16 عبير شهرزاد: مفترق العصور، ص174
- 17 المصدر نفسه: ص26
- 18 المصدر نفسه: ص176
- 19 المصدر نفسه: ص305